ابنُ وافِدٍ
النَّباتيُّ الوَزيرُ
(387 ـ 467هـ)

أَعزَّائي وأَحبَّائي:

ابنُ وافِدٍ، العَالمُ العَرَبيُّ الأَندَلُسيُّ، الَّذِي بارَكَ اللهُ لَهُ في عُمرِهِ وعِلمِهِ وجَعلَ لَهُ ذِكراً حَسناً، ومَقاماً مَحموداً بَينَ أَقرانِهِ في الدُّنيا بِفضلِ عِلمِهِ ومَعرِفَتِهِ، بَلَغَ مِنَ العِلمِ والمَعرِفَةِ ما جَعَلَ عُلماءَ عَصرِهِ في عِلمِ النَّباتِ يَشهَدونَ لَهُ بِعلوِّ كَعبِهِ عَليهِمْ في مَعرِفَةِ النَّباتاتِ وتَركيبِ الأَدْويَةِ المُفرَدَةِ، وعِلاجِ الأَمراضِ المُختَلِفَةِ.

وأَيضاً، بِمَعرِفَتِهِ في الفِقهِ وقَضاياهُ ومَسائِلِهِ ما دَفَعَ أَميرَ طَلَيطلَةَ يَختارُهُ لِيَكونَ وزيراً وسَنداً لَهُ في إِدارَةِ البِلادِ، وسِياسَةِ العِبادِ، ولِيَكونَ مُستشارَهُ الأَوَّلَ في أُمورِ العُمرانِ، وفي إِنشاءِ المَرافِقِ العَامَّةِ في طُلَيطِلَةَ والبِلادِ الَّتِي انْضَوَتْ تَحتَ حُكمِهِ.

ابنُ وَافِدٍ، النَّباتيُّ والعَشَّابُ، والفَقيهُ والفَيلسوفُ، والطَّبيبُ والوَزيرُ، بَلَغَ شَأْواً عَظيماً في مَعرِفَةِ العَقاقيرِ، وتَركيبِ الأَدويَةِ المُفرَدةِ، والعِلمِ بِالفِلاحَةِ ووجوهِها، حَتَّى شَهِدَ لَهُ رائِدُ البَحثِ العِلميِّ في عِلمِ النَّباتِ «ابنَ جَلْجَلَ» بِالتَّفوقِ والخبرَةِ عَلى كُلِّ العُلماءِ

والأَطبَّاءِ الَّذِينَ كانوا قَبلَهُ، وكَذَلِكَ الَّذِينَ أَتَوا بَعدَهُ، بَلْ إِنَّهُ سَبَقَ أُستاذَهُ الطَّبيبَ الزَّهراويَّ المَعروفَ بَينَ عُلماءِ النَّباتِ والطِّبِّ العَرَبِ خِبرَةً وتَصنيفاً وبَحثاً وتَطبيقاً.

ويَكفي ابن وافِدٍ فَخراً أَنهُ أَشرَفَ عَلى بِناءِ قَصرِ طُليطلَةَ الَّذِي بَناهُ أَميرُ طُليطلَةَ وحاكِمُها الَّذِي ما يزالُ إِلى اليَومِ أَثراً خالِداً مِنَ الآثَارِ العمرانيَّةِ لِلعَربِ في بِلادِ الأَندَلُسِ، وأَنَّهُ أَنشَأَ حَديقَةَ طُلَيطلَةَ الَّتِي تَغَنَّى بِها الشُّعراءُ كَثيراً، وقَصدَ رُؤيَتَها القَاصي والدَّاني.

فَمَنْ هُوَ ابنُ وافِدٍ؟

❁ ❁ ❁

هُوَ أَبو المطرفِ عَبدُ الرَّحمنِ بنُ مُحمَّدٍ بنِ مُهنَّدٍ بنِ عَبدِ الكَبيرِ بنِ يَحيَى بنِ وَافِدٍ الطُّلَيطليُّ اللَّخميُّ، ولِدَ في طُلَيطلَةَ سَنَةَ (387) هجريَّةً، عاشَ ثَمانينَ سَنَةً، وتُوفيَ سَنةَ (467) هجريَّةً، ودُفنَ في طُلَيطلَةَ.

وهوَ عَربِيٌّ لَخميٌّ، دَخَلَ أَجدادُهُ في جُملَةِ أَجنادِ العِراقِ والشَّامِ في جَيشِ موسَى بنِ نُصيرٍ إِلى بِلادِ الأَندلُسِ، وسَكنوا طُليطِلَةَ واستَوطَنوا فيها.

فَنَسَبُهُ يَعودُ إِلى بَني لَخمٍ الَّذِينَ كانَ مِنهُمُ الصَّحابِيُّ الجَليلُ «تَميمٌ الدَّاريُّ» رضي الله عنه، والَّذِينَ سَكنوا الحيرَةَ في العِراقِ قَديماً ومَلكوها زهاءَ خَمسمئة سَنَةٍ. ويَعود نَسَبُ بَني لَخمٍ في سِلسِلَةِ أَنسابِ العَربِ إِلى الحارِثِ بنِ عديٍّ، الَّذِي لَخَمَ[1] وجهَ أَخيهِ جُذامٍ فَسُمِّيَ لَخْماً.

(1) لخمه: لَطَمَهُ وقَطَعَ مِنهُ لَحماً.

وكانَ أَوَّلُ مُلوكِ بَني لَخْم في الحيرَةِ عَمرو بنَ عَديِّ بنِ لَخْم، مَلَكَ الحيرَةَ بَعدَ خالِهِ جُزيمَةَ. وقَدْ عَمَّرَ طَويلاً وحَكَمَ الحيرَةَ (118) سَنَةً، وآخِرُهُمُ المَلِكُ النَّعمانُ بنُ المُنذِرِ.

كَما كانَ مِنْ بَني لَخْم، بَنو عَبَّادٍ الَّذِينَ حَكموا الأَندلُسَ، واشتَهَرَ مِنهُمُ الأَميرُ المُعتَمِدُ بنُ عَبَّادٍ، والوَزيرُ الصَّاحِبُ بنُ عَبَّادٍ.

ومُنذُ نُعومَةِ أَظفارِهِ، اهتَمَّ ابنُ وافِدٍ بَحفظِ القُرآنِ الكَريمِ، وبِمُطالَعَةِ كُتُبِ الفِقهِ والفَلسَفَةِ وعِلمِ النَّباتِ، واهْتَمَّ بِشَكلٍ خاصٍّ بِقِراءَةِ كِتابِ ديسقوريدس ومُؤَلَّفاتِ الطَّبيبِ اليُّونانيِّ القَديمِ جالينوس، وتَرَدَّدَ عَلى مَجالِسِ العِلمِ في جامِعِ طُلَيطلَةَ وسَمعَ مِنْ شُيوخِها ومُحَدِّثيها، وتَعَرَّفَ عَلى عَالِمِ النَّباتِ الطَّبيبِ الزَّهراويِّ.

❋ ❋ ❋

اسْتَفادَ ابنُ وافِدٍ مِنْ صُحبَتِهِ لِأُستاذِهِ الزَّهراويِّ، ومِنْ خروجِهِ مَعَهُ إلى الأَريافِ والجِبالِ لِمُعايَنَةِ النَباتاتِ والأَعشابِ، ولِمَعرِفَةِ خَواصِّها العِلاجيَّةِ في العِلَلِ والأَمراضِ.

فَكانَ الزَّهراويُّ طَبيباً فاضِلاً مُتقِناً لِلحِكمَةِ ولِلعلومِ الرِّياضيَّةِ، مُتَميِّزاً في صِناعَةِ الطِّبِّ، ولَهُ التَّصانيفُ العَديدَةُ، مِنها:

- اختِصارُ الحاوي في الطِّبِّ لِلرازيِّ.
- وكِتابُ الخَواصِّ الطِّبيَّةِ المُنتَزَعَةِ مِنْ كُتبِ ديسقوريدس وجالينوس.

سارَ ابنُ وافِدٍ عَلى خُطَى أُستاذِهِ، واتَّبَعَ مَنْهَجَهُ في شَرحِ الأَدويَةِ المُفرَدةِ، وأبدَع في

تَركيبِ الأَدويَةِ النافِعَةِ. وكانَ لَهُ أُسلوبُهُ في عِلاجِ الأَمراضِ الَّذِي يَقومُ عَلى الغِذاءِ أَولاً قَبلَ وصفِ الدَّواءِ الَّذِي رُبَّما كانَ لَهُ تَأثيرُهُ السَّلبيُّ عَلى المَريضِ.

يَقولُ عَنهُ المقريُّ التِّلمَسانيُّ في كِتابِهِ «نَفحِ الطِّيبِ»:

«وَكانَ الوَزيرُ أَبو المطرفِ عبدُ الرَّحمنِ بنُ مُهَنَّدٍ مُصَنِّفُ الأَدويَةِ المُفرَدَةِ آيَةَ اللهِ تَعالى في الطِّبِّ وغَيرِهِ، حَتَّى إِنَّهُ عايَنَ جَميعَ ما في كِتابِهِ مِنَ الأَدويَةِ المُفرَدَةِ، وعَرفَ تَركيبَ قواها ودَرجاتِها، وكانَ لا يَرى التَّداوي بِالأَدويَةِ ما أَمكَنَ التَّداوي بِالأَغذِيَةِ أَو يَقربُ مِنها، وإِذا اضطَرَّ إِلى الأَدويَةِ فَلا يَرى التَّداوي إِلى المُرَكَّبَةِ ما وجَدَ سَبيلاً إِلى المُفرَدَةِ، وإِذا اضطَرَّ إِلى المُركَّبَةِ لا يُكثِرِ التَّركيبَ، بَلْ يَقتَصِرُ عَلى أَقَلّ ما يُمكِنُهُ، ولَهُ غَرائِبُ مَشهورَةٌ في الإِبراءِ مِنَ الأَمراضِ الصَّعبَةِ والعِلَلِ المُخَوِّفَةِ بِأَيسَرِ عِلاجٍ وأَقرَبِهِ».

ويَقولُ عَنهُ الصَّفَديُّ في كِتابِهِ «الوافي بِالوَفياتِ»:

«الوَزيرُ أَبو مطرِفٍ اللَّخميُّ، أَحدُ أَشرافِ الأَندلُسِ، وذَوو السَّلَفِ الصَّالِحِ والسَّابِقَةِ القَديمَةِ، عُنيَ عِنايَةً فائِقَةً بِقراءَةِ كُتُبِ جالينوس وتَفَهَّمَها، ومُطالَعَةِ كُتُبِ أَرسطاليس وغَيرِهِ مِنَ الحُكماءِ، ومَهرَ في عِلمِ الأَدويَةِ، وجَمَعَ فيهِ كِتاباً جَليلاً لا نَظيرَ لَهُ في حُسنِ التَّرتيبِ، جَمَعَهُ في عِشرينَ سَنَةً، ولَهُ في الطِّبِّ مَنزعٌ لَطيفٌ، ومَذهَبٌ نَبيلٌ، كانَ لا يَرى التَّداوي بِالأَدويَةِ ما أَمكَنَ التَّداوي بِالأَغذيَةِ أَو كانَ قَريباً مِنها، فَإِنْ دَعَتِ الضَّرورَةُ إِلى الدَّواءِ لا يَراهُ بِالمُرَكَّبِ، فَإِنِ اضطَرَّ إِلى المُرَكَّبِ لَمْ يَرَهُ بِما كَثُرَ تَركيبُهُ، ولَهُ نوادِرُ مَحفوظَةٌ، وغَرائِبُ مَشهودَةٌ في الإِبراءِ مِنَ العِلَلِ الصَّعبَةِ، والأَمراضِ المُخيفَةِ بِأَيسَرِ عِلاجٍ».

❁ ❁ ❁

دَرَسَ ابنُ وافِدٍ كُتُبَ ديسقوريدس وجالينوس، وذَكَرَ ابنُ جَلجَلَ في أَحدِ كُتُبِهِ أَنَّ ابنَ وافِدٍ قَدْ أَجادَ في كِتابِهِ عَنِ الأَدويَةِ المُفرَدَةِ مِمَّا يُعَدُّ إِسهاماً مُفيداً لِطُلابِ الطِّبِّ والعقاقيرِ.

ويُشيرُ مُعاصِرُهُ ابنُ صاعِدٍ الأَندَلُسي في كِتابِهِ «طَبقاتِ الأُمَمِ» إِلى أَنَّ ابنَ وافِدٍ «عنيَ عِنايَةً فائِقَةً بِقراءَةِ كُتبِ جالينوس، وتَفَهَّمَها، ومُطالَعَةِ كُتبِ أَرسطوطاليس وغيرِهِ مِنَ الفَلاسِفَةِ، وتَمَهَّرَ في عُلومِ الأَدويَةِ المُفرَدَةِ حَتَّى ضَبَطَ مِنها ما لَمْ يَضبطْهُ أَحدٌ في عَصرِهِ، وأَلَّفَ فيها كِتاباً جَليلاً لا نَظيرَ لَهُ جَمَعَ فيهِ ما تَضَمَّنَهُ كِتابُ ديسقوريدس، وكتابُ جالينوس المُؤلفانِ في الأَدويَةِ المُفرَدَةِ، ورَتَّبَهُ أَحسَنَ تَرتيبٍ، وهوَ مُشتَملٌ عَلى خَمسمئَةِ ورَقَةٍ.

وأَخبَرني أَنهُ عانى جَمعَهُ وحاوَلَ تَرتيبَهُ، وتَصحيحَ ما ضَمنَهُ مِنْ أَسماءِ الأَدويَةِ وصِفاتِها وأَودَعَهُ إِيـَّاهُ مِنْ تَفصيلِ فَحواها، وتَحديدِ دَرجاتِها مِنْ عِشرينَ سَنَة حَتَّى كَملَ مُحَقِّقاً لِغَرَضِهِ، مُطابِقاً لِبُغيَتِهِ».

ولابنِ وافِدٍ كِتابٌ في تَراجِمِ الرِّجالِ الَّذِينَ لَقيَهُمْ، أَشارَ إِليهِ «ابنُ بَشكوالَ» في كِتابِهِ «الصِّلَةِ في تاريخِ أَئِمَّةِ الأَندَلسِ» وذَكَرَ طَرفاً مِنْ كَلامِ ابن وافدٍ فيهِ، دَلَّ كلامُ ابن وافِدٍ عَلى حَصافَةِ فِكرِهِ الشُّموليِّ، وعَلى تَوَخيهِ الدِّقَةَ العِلميَةَ في الوَصفِ والتَّحقيقِ، فَفي مَعرضِ حَديثِهِ عَنِ العالِمِ ابن زُهرٍ الإِياديِّ يَقولُ ابن بَشكوالَ:

«وذَكَرهُ أَبو المُطرفِ عبدُ الرَّحمَنِ بنُ مُحَمَّدٍ الطُلَيطليُّ في تَسميَةِ رِجالِهِ الَّذِينَ لَقيَهُمْ، فَقالَ: أَبو بَكرٍ مُحَمَّدُ بنُ مَروانَ بنِ زُهرٍ الإِياديُّ الإِشبيليُّ، قَدمَ عَلينا مِنْ إِشْبِيْلِيَّةَ سَنَةَ تِسعَ

عَشرَةَ وأَربَعمئَةٍ، وكانَ شَيخاً وسيماً فاضِلاً عَالِماً بِالمَسائِلِ والآثَارِ، مُتَفَنِّناً في العُلومِ وقَديراً أَصيلاً، يَألَمُ في جُلوسِهِ. فَقيلَ لَهُ في ذَلِكَ، فَأَنشأَ يَقولُ:

سَئِمتُ تَكاليفَ الحَياةِ ومَنْ يَعِشْ ثَمانينَ حَولاً لا أَبا لكَ يَسأَم

❋ ❋ ❋

لَقيَ ابنُ وافِدٍ مِنَ المَأمونِ بنِ ذي النُّونِ أَميرِ طُلَيطلَةَ كُلَّ تَقديرٍ واحتِرامٍ؛ لأَنَّ ابنَ وافِدٍ كانَ مِنْ كِبارِ أَعيانِ طُليطلَةَ ومِنَ الأَثرياءِ الَّذِينَ ورثوا الوَجاهَةَ والمالَ، وفَوقَ هَذا وذاكَ كانَ عالِماً خَبيراً وفَقيهاً مُحَنَّكاً، وطَبيباً مُجَرَّباً، فَاختارَهُ المَأمونُ لِيَكونَ وزيراً لَهُ ومُعيناً في تَحمُّلِ أَعباءِ الإِمارَةِ، وعَهدَ إِليهِ القِيامَ بِإِنشاءِ حَدائِق طُلَيطلَةَ والإِشرافَ على بِناءِ قَصرِهِ البَديعِ والمَنيفِ الَّذِي كانَ أُعجوبَةً عُمرانيَّةً مِنْ عَجائِبِ العَربِ في بِلادِ الأَندلُسِ.

كانَ المَأمونُ بنُ ذي النُّونِ أَميراً مُسرِفاً يُحبُّ الأُبَّهَةَ واللَّهوَ والسَّمَرَ، وكانَ يُنادِمُ الشُّعراءَ، ويُغدِقُ عَليهِمُ الأَموالَ والأُعطياتِ حَتَّى مَدحَهُ أَحدُ الشُّعراءِ فَقالَ:

دَعوا المُلوكَ وأَبناءَ المُلوكِ فَمَنْ أَضحَى عَلى البَحرِ لَمْ يَشتَقْ إِلى نَهرِ

ما في البَسيطَةِ كَالمَأمونِ ذي كَرَمٍ فَانظُرْ لِتَصديقِ بِما أُسمِعتَ مِنْ خَبَرِ

وذَكَرَ المقريُّ التِّلمسانيُّ في كِتابِهِ «نَفحِ الطِّيبِ» عَنِ المَأمونِ القِصَّةَ التَّاليَةَ:

«وحَكى ابنُ بَدرونَ في شَرحِ العَبدونيَّةِ، أَنَّ المَأمونَ بنَ ذي النُّونِ صاحِبَ طُلَيطِلَةَ، بَنى قَصراً فيها تَأَنَّقَ في بِنائِهِ وأَنفَقَ فيهِ مالاً كَثيراً، وصَنَعَ فيهِ بُحيرَةً، وبَنى في وسطِها قُبَّةً، وسيقَ الماءُ إِلى رأسِ القُبَّةِ عَلى تَدبيرٍ أَحكَمهُ المُهندسونَ، فَكانَ الماءُ يَنزلُ مِنْ أَعلى القُبَّةِ

حَواليَها مُحيطاً بِها مُتَّصلاً بَعضُهُ بِبَعضٍ، فَكانَتِ القُبَّةُ في غُلالَةٍ مِنْ ماءٍ سَكبٍ لا يَفْتَرُ. والمَأْمونُ بنُ ذي النُّونِ قاعِدٌ فيها لا يَمَسُّهُ مِنَ الماءِ شَيءٌ.

ولَو شاءَ أَنْ يُشعِلَ فيها الشَّمعَ لَفَعَلَ، فَبينَما هوَ فيها إذْ سَمعَ مُنشِداً يُنشِدُ:

أَتَبني بِناءَ الخالِدينَ وإِنما ... بَقاؤُكَ فيها لو عَلِمتَ قَليلُ

لَقَدْ كانَ في ظِلِّ الأَرائِكِ كِفايَةٌ ... لِمَنْ كُلُّ يَومٍ يَعتَريهِ رَحيلُ

فَلَمْ يَلبَثِ المَأمونُ بَعدَها إِلَّا قَليلاً حَتَّى قَضَى نَحبَهُ.

تَولَّى ابنُ وافِدٍ غَرسَ حَديقَةِ وجَنَّةِ المَأمونِ في طُليطلَةَ بِالأَغراسِ والنَّباتاتِ العَجيبَةِ والجَميلَةِ الَّتي تَمَّ جَلبُها مِنْ كافَّةِ أَنحاءِ الأَندَلُسِ ومِنَ البُلدانِ البَعيدَةِ، فَكانَتْ هَذهِ الحَديقَةُ آيَةً في الجَمالِ والرَّوعَةِ، وقَصَدَ رؤيَتَها الأُمراءُ والمُلوكُ والعَامَّةُ مِنْ سائِرِ أَنحاءِ المَعمورَةِ، وكانَتْ أَهَمَّ مَعلَمٍ سِياحيٍّ في بِلادِ الأَندلُسِ كُلِّها، وتَغَنَّى في روعَتِها وبَهائِها الشُّعراءُ، وتَحَدَّثَ بِعجائِبِها الرُّكبانُ، والفَضلُ في كُلِّ ذَلِكَ لابن وافِدٍ.

وكَمثالٍ نَذكُرُ ما قالَهُ أَحدُ الشُّعراءِ في وصفِها:

يا مَنظَراً إِنْ نَظَرتُ بَهجَتَهُ ... أَذْكَرَني حُسنَ جَنَّةِ الخُلدِ

تَراهُ يَزهو إِذا يَحلُّ بِهِ ... المَأمونُ زَهوَ الفَتاةِ بِالعقدِ

كَأَنما أُلبِسَتْ حَدائِقُهُ ... ما حازَ مِنْ شِيمَةٍ ومِنْ مَجدِ

كَأَنما جادَها وأَمطَرَها ... بِوابِلٍ مِنْ يَمينِهِ رَغَدِ

ولابنِ وافِدٍ كِتابٌ مُهِمٌّ في عِلمِ الفِلاحَةِ أَشارَ إِليهِ المُصَنِّفونَ والمُؤرِّخونَ، ولَكِنَّهُ لَمْ

يُعثَرْ عَليهِ بَعدُ، وقَدْ أشارَ بَعضُ المُستَشرقينَ الَّذِينَ دَرَسوا تاريخَ ابن وافدٍ إِلى أَنَّ الكِتابَ المَوجودَ حالياً في مَكتَبَةِ كاتدرائيَّةِ طُليطلَةَ والمُتَرجَمَ إِلى اللُّغَةِ القَشتاليَّةِ رُبَّما كانَ هوَ نَفسُهُ لابن وافدٍ في عِلمِ الفِلاحَةِ، وَقَدْ نُسِبَ لِغَيْرِهِ.

أَمَّا مُؤلفاتُ ابن وافِدٍ فَهيَ:

1 ـ كِتابُ الأَدويَةِ المُفرَدَةِ.

2 ـ كِتابُ المُجَرَّباتِ في الطِّبِّ.

3 ـ كِتابُ تَدقيقِ النَّظَرِ في حاسَّةِ البَصَرِ.

4 ـ كِتابُ الغَيثِ.

5 ـ كِتابُ الوسادِ في الطِّبِّ.

الأَسئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ كيفَ وصَفَ ابنُ جَلْجَلَ ابنَ وافِدٍ؟

2 ـ إِلى مَنْ يَنتَسِبُ بَني لَخمٍ، ومَنْ أَوَّلُ وآخِرُ مُلوكِهِمْ في الحيرَةِ؟

3 ـ عَلى ماذا أَشرَفَ ابنُ وافِدٍ؟

4 ـ لِماذا اختارَ المَأمونُ ابنَ وافِدٍ وزيراً لَهُ؟

5 ـ ما هِيَ أَهمُّ صِفاتِ المَأمونِ بنِ ذي النُّونِ؟

6 ـ ما هيَ الكُتبُ الَّتِي قَرأَها ابنُ وافِدٍ، وكيفَ اسْتفادَ مِنها؟

7 ـ كيفَ كانَ أُسلوبُ ابنِ وافِدٍ في عِلاجِ الأَمراضِ؟

8 ـ ما هيَ أَهمُّ مُؤلَّفاتِ ابنِ وافِدٍ؟